المحاضرة (٥)

الهجرة الى يثرب

هجرة النبي إلى المدينة وتكوين الدولة

بدأت الهجرة إلى يَثرب جماعات وفرادى بعد بيعتين مع أهلها، وخلَّف المهاجرون وراءهم بيوتهم وديارهم وأهليهم وأموالهم وممتلكاتهم؛ فرارًا بدينهم ورغبة في إقامة شعائره بمنأى عن الاضطهاد الذي بلَغ مَداه، وبمأمَنٍ على النفس والمال والأهل.

وبعد مؤامرة فاشِلة من الكفار على قتله، هاجر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بصُحبة الصدِّيق أبي بكر – رضي الله عنه.

وسعى المشركون في ملاحقتهما، ورصدوا الجوائز لمن يأتي بهما أو يدلُّ عليهما أو يساعد في الوصول إليهما، ولكن الله نصَرهما وأنجاهما حتى وصَلا إلى يثرب بأمان.

وترك رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ابن عمه عليَّ بن أبي طالب في فراشه؛ ليردَّ للكفار أماناتهم وأموالهم التي تركَوها لدَيه.

ومع بلوغه يثرب – التي صارت المدينة النبوية – وضع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – السطر الأخير في هذه المرحلة المكية المفعمة بالأحداث والدروس والعِبر والعِظات، مرحلة امتدت ثلاثة عشر عامًا هي الجزء الأعظم من عمر الدعوة الإسلامية، لم يُسمَع فيها من المسلمين صليل سيف أو صرير نَصل على صفحة قد احتوشت سطورًا من عذابات وجراحات واعتداءات

تكوين الدولة

وبمجرد وصول النبي الكريم محمد – صلى الله عليه وسلم – إلى المدينة، بدأت مرحلة جديدة في الدعوة؛ حيث عمل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على تكوين دولة يَحكمها شرع الله وتكون المرجعية فيها إلى كتاب الله وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – وتنطلق من القواعد الخُلقية الإسلامية والآداب الشرعية المنبثقة من نور الوحي والرسالة.

وقد جعل النبي الكريم محمد – صلى الله عليه وسلم – الأساسَ الذي تقوم عليه العلاقة بين أفراد هذا المجتمع الناشئ هو الأخوةَ والمحبة والود والمساواة والعدل، فلا تفاضل بين الناس على أساس النسب

والحسب، أو الفقر والثراء، أو القوة والضعف، ولا تمييز بين أفراد المجتمع الواحد على أساس اللون أو الجنس، بل الناس كلهم سواسية لا يتفاضلون إلا بمقدار ما يتزوَّدون من تقوى الله – سبحانه.

قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: ((يا أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألاَ لا فضل لعربيٍّ على عجَمي، ولا عجمي على عربي، ولا لأحمرَ على أسوَد، ولا لأَسود على أحمر، إلا بالتقوى، إن أكركم عند الله أتقاكم))

وبذلك أرسى نبي الرحمة – صلى الله عليه وسلم – قواعد العدالة بكل وجوهها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، سابقًا في ذلك كلَّ النظم والقوانين الأرضية الوضعية التي تحكم المجتمعات المدنية التي كانت تقبَع حتى وقت قريب جدًّا تحت وطأة التمييز العنصري الظالم، الذي يَضطهد فيه الإنسان أخاه لمجرَّد أنه ذو بشرة سوداء!

فعلى سبيل المثال:

إذا نظرنا إلى دولة كالولايات المتحدة الأمريكية التي تزعم أنها راعية الحضارة والمدنية والحرية، نجد أنها كانت غارقة وما زالت في عنصرية مَقيتة، فمنذ وطئت أقدام العبيد الأفارقة أرض أمريكا عام ١٦١٩م ظلوا يعانون من هذا الاضطهاد العنصري، ثم عانى أبناؤهم ونسلهم من هذه العنصرية أيضًا، ولا يجوز للزنوج أن يدخلوا أو يخرجوا من الأبواب عَينها التي يدخل منها البيض ويَخرجون، وكان يفرَّق بينهم حتى في مبرِّدات المياه والأكواب، إلى درجة أن الرجل الأبيض يرضى أن يشرب كلبه من كوبه ولا يَشرب منه رجل أسود!

وفي التعليم: جاء دستور ولاية ميسيسبي: (الفصل الثاني: في التربية والتعليم، الفقرة ٢٠٧): "يُراعى في هذا الحقل أن يُفصل أطفال البيض عن أطفال الزنوج، فتكون لكل فريق مدارسه الخاصة".

وجاء في وثيقة "نداء إلى العالم" التي قدمتها "الجمعية الوطنية لترقية الشعب الملون" للأمم المتحدة عام ١٩٤٧م: "وفي عشرين ولاية من ولايات البلاد يُفصل ما بين الطلبة البيض والطلبة السود في المدارس فصلاً إلزاميًّا، أما ولاية فلوريدا، فتقضي قوانينها بأن تخزن الكتب المدرسية الخاصة بالطلاب الزنوج بمعزل عن الكتب الخاصة بالطلاب البيض"!

ورغم إلغاء بعض هذه القوانين بعد ضغوط من منظمات حقوق الإنسان، إلا أن العُنصرية ما زالت مترسِّخة في النفوس وذات جذور عميقَة، بدليل استمرار الممارسات العنصرية في الشارع الأمريكي بشكل واسع كما تَذكُر كثير من الإحصائيات والدراسات الحديثة، وليس هذا غريبًا على مجتمع تربَّى على أصول التفرِقة العنصرية.

أما في مجتمع نبي الرحمة محمد – صلى الله عليه وسلم – فقد ذابت هذه الفوارق، وأُلغِيَت تلك العنصريات الظالمة والعصبيات المَقيتة، وصار جميع أفراد المجتمع إخوة متحابين، لا احتقار لأي إنسان بسبب لونه أو فقره أو ضعفه، فإن من أكبر الشرِّ الكِبر واحتقار الآخرين، رغم أنهم يمثلون الآن ما يُقارب ١٣% من تعداد الأمريكيين؛ وما ارتكب أولئك السود من ذنب سوى أن الله خلقهم بلون آخر!

لقد كان الاضطهاد والفصل العنصري مقنَّنًا في تشريعات وقوانين دستورية، كما تعدَّدت مَظاهره في الشوارع والمؤسسات المختلفة:

ففي السجون والمؤسسات الإصلاحية: كان يتمُّ التفريق بين البيض والسود؛ حيث جاء في دستور ولاية ميسيسبي (الفصل العاشر، في الإصلاحيات والسجون، الفقرة ٢٢٥): "للمجلس التشريعي أن يُهيئ الأسباب المؤدية إلى فصل المساجين البيض عن المساجين السود بقدر الطاقة والإمكان"، وهذا الفصل بين البيض والسود كان إلزاميًّا في السجون والمؤسسات الإصلاحية في إحدى عشرة ولاية من الولايات المتحدة.

وكانت كثير من الولايات الأمريكية تُحرِّم التزاوج بين البيض والسود؛ مثل: كاليفورنيا، وكولورادو، وإيداهو، وإنديانا، ونبراسكا، ونيفادا، وأوريغون، وأوته.

وكانت هنالك قوانين تقضي بالفصل بين المرضى البيض والمرضى السود في المستشفيات، وفي إحدى عشرة ولاية كان يُفصَل ما بين المصابين بالأمراض العقلية على أساس اللون والعرق أيضًا.

وفي وسائل المواصلات كان القانون يَفرِض عزل ركاب القطارات البيض عن السود في أربع عشرة ولاية، أما في السيارات العامة والحافلات، فكان العزل مفروضًا في إحدى عشرة ولاية.

وفي بعض المناطق تمَّ إنشاء غرف تليفونية مستقلة للزنوج، وما كان يُسمح للعمال الزنوج والبيض بأن يقيموا على صعيد واحد في مصانع النسيج القطني.

قال نبي الرحمة – صلى الله عليه وسلم –: ((كونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، بحسب امرئ من الشر أن يَحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه)).

وقال – صلى الله عليه وسلم –: ((لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبر))، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة؟! قال – صلى الله عليه وسلم –: ((إن الله جميل يحب الجمال، الكِبر بطر الحق، وغمط الناس).

ففي الصلاة مثلاً يقف الجميع في صفٍّ واحد، الكتف بالكتف، والقدم بالقدم، يركعون ويسجدون معًا، وفي الحج والعمرة يسعى الجميع معًا، ويطوفون ويؤدون المناسك معًا، وفي الجهاد يقف الجميع في صفٍّ واحد، فلا فرق بين غني وفقير، أو أسود وأبيض، أو قوي وضعيف، فالكل سواسية.

في غزوة بدر كان مع المسلمين سبعون بعيرًا يتعاقبون على ركوبها، وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأبو لبابة وعلي بن أبي طالب – رضي الله عنهما – يتعاقبون على بعير واحد، فأراد أبو لبابة وعلي أن يؤثِرا الرسول بالركوب، فقالا: نحن نمشي عنك، فقال: ((ما أنتما بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما)).

وعلى هذه الأسس السامية تربى المسلمون وعاشوا تحت قيادة نبي الرحمة رسول الله محمد – صلى الله عليه وسلم – لينعم الجميع في ظل هذه القيادة المباركة بالأمن والعدل.

وانطلق نبي الرحمة محمد – صلى الله عليه وسلم – في علاقته مع غير المسلمين من مُنطلَق محبة الخير لهم والحرص على هدايتهم بكل طريق، والتزم في تعامله معهم بالإحسان والبر والقِسط والعدل، والدعوة إلى الخير والحق بالحكمة والمَعروف.

قال الله تعالى: ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: ٨].

وقال – سبحانه وتعالى –: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥].

وحرَّم الإسلام التعرُّض للآخَرين بالظلم والاعتداء مهما اعتدى هؤلاء أو ظلَموا، وحتى إن ارتكبوا ما يوجب الكراهية والبغضاء لهم، فإن هذا في الإسلام ليس مسوغًا لظلمِهم وعدم إعطائهم حقَّهم من العدل والإنصاف.

قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨].

وعلى هذه الأخلاق والقيم والمبادئ السامية بَنى الرسول محمد – صلى الله عليه وسلم – الدولة الإسلامية الأولى التي شكَّلت مثالاً فريدًا في كل شيء، في التعامل الأخوي الودود بين أفراد هذا المجتمع – والذي كان يعيش بين مجتمعات غارقة في العنصرية والجاهلية – وفي التعامل المتسامِح والعادل مع جميع المخالفين مع الحرص عليهم وحب الخير لهم والرغبة الصادقة في استنقاذهم من الضلال، ثم في الروح العجيبة التي دبَّت في قلوب المؤمنين لتجعلهم يرتقون فوق ملذَّات الدنيا لتتعلق قلوبهم بالآخرة، وليُجنِّدوا

أنفسهم لحرب الفساد بكل أشكاله وأنواعه، والدعوة إلى كل خير ونفع للناس، فكانوا أشبه بالنار التي يَلتهم لهيبها الفساد من جهة، ويضيء نورها السبيل لمن ضلوا الطريق من جهة أخرى، فهم الآمِرون بالمعروف والناهون عن المنكر والداعون إلى الله؛ ولذلك استحقوا أن يكونوا خير أمة أخرجت للناس كما وصفهم الله – تبارك وتعالى – قال الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّه﴾ [آل عمران: ١١٠].